

(المحاضرة الثانية)

المبحث الثاني

بدايات ظهور المدارس الكلامية وتطوراتها

سوف نعرض هنا في إجمال لأهم المراحل في بدايات ظهور المدارس الكلامية وتطوراتها منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر مبرزين بعض الخصائص والتطورات التي تتميز بها كل مرحلة ، آملين أن ننقل الضوء على أهم المدارس والاتجاهات التي نشأت في نطاق البحث الكلامي ، وما تعرضت له مواقفها وآراؤها من تطور ، وما ألم بها من مؤثرات .

وهذه المراحل المتميزة هي في نظرنا خمس تتمثل على النحو التالي :

- ١ . مرحلة النشأة ، وتستغرق زمنياً القرن الهجري الأول وأوائل الثاني .
- ٢ . مرحلة التدوين وظهور المدارس الكلامية ، وتستغرق زمنياً القرون الأربعة منذ أوائل الثاني حتى نهاية الخامس تقريباً .
- ٣ . مرحلة التطور والاختلاط بالفلسفة ، وتشغل القرون من السادس حتى التاسع الهجريين .
- ٤ . مرحلة الفتور والتقليد من العاشر حتى نهاية الثاني عشر .
- ٥ . ثم المرحلة الحديثة ، وتشمل القرنين الأخيرين .

أولاً : مرحلة النشأة .

ونقصد بها المرحلة التي بدأت فيها النقاشات والمباحثات حول المسائل الاعتقادية، ونشأ عن بعض المناقشات والمباحثات خلافات في الرأي تحولت بعد حين إلى اتجاهات ومدارس تتبناها بعض الطوائف أو الجماعات ،ولكن هذه المباحثات لم تدون كلها ، والاتجاهات الناجمة عنها لم تتحول إلى مدارس مكتملة لها آراؤها في كافة المسائل الاعتقادية أو أكثرها كما سيحدث فيما بعد ، بل اقتصر الأمر على أبداء الرأي في مسألة معينة أو عدة مسائل متفرقة ، وتغلب الطابع السياسي على هذه التجمعات دون الطابع الفكري ، وأظهر مثال على ذلك حالة الخوارج^(١) .

العوامل الرئيسية في تكوين هذه المرحلة .

أولاً : عامل النص

ويحوي هذا القسم الحديث عن المصدرين الرئيسيين عند المسلمين قاطبة وهما الكتاب والسنة المطهرة ، وبينهما شيء من التمايز رغم المشتركات الكثيرة .

أ . القرآن الكريم

(١) المدخل إلى دراسة علم الكلام ، د. حسن محمود الشافعي، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ، باكستان

كان للقرآن الكريم أثر لا ينكر على نشأة المدارس الكلامية سواء في بواورها الأولى أو في مراحل نموها التالية ، وذلك من نواحي عدة^(٢) :

١. من حيث بيانه للعقائد الإسلامية في شأن الألوهية والنبوة والبعث ، واستدلاله عليها بالبراهين والحجج الملزمة للعقول المناسبة للفطرة .
٢. ومن حيث مناقشته للعقائد والأفكار المضادة ، كالدهرية ، والوثنية ، واليهودية ، والمسيحية ، وغيرها تمييزاً للعقيدة الدينية الخالصة ونفياً للشبه عنها .
٣. ومنها إطلاقه للعقول من قيودها ، ودعوته إياها للنظر والتفكير ، بل إيجابه عليها ذلك ، ليكون الإيمان عن بينة ولتطمئن القلوب بالحنفية السمحة .
٤. ومنها احتواؤه على المحكم والمتشابه من الآي ، الأمر الذي أعطى فرصة للاختلاف حول معنى النوع الثاني منهما (المتشابه) .

ب. السنة النبوية المطهرة .

بعد أن استوفى الله أصول العقيدة كلها في كتابه المجيد وبينها الرسول الكريم بقوله وفعله أتم بيان ، وكان -عليه الصلاة والسلام- يحاور أهل الكتاب ، ويجادل المشركين ، ويجيب على أسئلتهم، إذا لم تظهر عليها سمة الجدل والعناد ، وكانت تتناول أدق مسائل العقيدة : في معرفة الله ، والقدر والروح ، والبعث والجنة والنار ، والنبوة ، وحقيقة الإيمان ، وعلاقة الإسلام بالأديان الأخرى^(٣) .

بل كان الصحابة كما يقول ابن القيم : « يوردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشكل عليهم من الأسئلة والشبهات فيجيبهم عنها بما يتلج صدورهم ، وقد أورد عليه صلى الله عليه وسلم الأسئلة أعداؤه واصحابه : أعداؤه للتعنّت والمغالبة ، وأصحابه للفهم والبيان وزيادة الإيمان ، وهو يجيب كلا عن سؤاله ، إلا ما لا جواب عنه كسؤال عن وقت قيام الساعة »^(٤)

إذن فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكره الخلاف والجدل من المسلمين خاصة في مسائل لا يصل العقل فيها وحده إلى اليقين كمسألة القدر ، ولكن تعرض للكثير من الأسئلة حول العقيدة من المسلمين وغير المسلمين ، وكان المشركين يستعينون بأهل الكتاب في وضع مثل هذه الأسئلة لاختباره صلى الله عليه وسلم - وكان يجيبهم بما فتح الله به عليه أو ينزل به الوحي .

وبالجملة فقد مضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون على عقيدة واحدة هي ما جاء في كتاب الله ، لأنهم «أدركوا زمان الوحي وشرف صحبة صاحبه ، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم

(٢) المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص ٤٩)

(٣) نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية ، يحيى هاشم حسن فرغل ، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية ، ١٣٩٢ هـ

(ص ٢٦٧)

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣ / ٥٩٤)

الشكوك والأوهام»^(٥).

إذن فقد أسهمت السنة المطهرة في وضع أسس الاستدلال العقلي والمناظرة المشروعة حول مسائل العقيدة عند أصحاب المدارس الكلامية ، بغرض البحث عن الحقيقة ، مع الاستهداء دائما بنور الوحي .

ثانيا : عامل طبيعة العقل الإنساني

إن المشاكل التي أثرت ، والآراء التي طرحت في هذه المرحلة وتفاعل العقل المسلم معها، في عصر الصحابة والتابعين إنما ترجع إلى طبيعة العقل الإنساني ذاته ، ذلك أن الذي يجد نفسه أمام أسئلة ملحة لا يستطيع أن يدفعها عن نفسه ، ولا يملك إلا أن يفكر فيها وأن يسعى إلى تقديم حل لها . فمن جملة الأسئلة نجد التساؤل الخاص ب : ما أصل العالم ، وما علته ، وما هي الحركة والسكون ؟ .. وهل الإنسان مجبر أم مخير ؟ ثم ما هي النفس وما هي الروح وما علاقتهما بالبدن ؟ وما حقيقة البعث : هل بالجسم أم بالنفس أم بهما معا ؟ إلى آخر هذه الأسئلة .. كل ذلك من شأنه أن يدفع العقل البشري إلى النظر والبحث والتأمل سواء في الكون أو في النص الديني الذي تحدث عن هذا الكون وغيره . ولقد هيا القرآن الكريم ، وهيات الأوضاع السياسية إلى حد كبير ، المناخ الفكري الملائم للعقل الإنساني الأمر الذي أدى إلى نشأة علم الكلام والمدارس الكلامية.^(٦)

ثالثا : العوامل المساعدة التي ظهرت في أواخر هذه المرحلة

وقد كانت هناك بعض العوامل المساعدة التي ظهر لها أثر في أخريات هذه المرحلة وبما تزيد فيما بعد ، ومن ذلك^(٧) . :

١. اتساع الفتوحات الاسلامية ، وما أدت إليه من مزيد من الاحتكاك بثقافات وأديان مختلفة .
٢. التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية المتدافعة داخل المجتمع الاسلامي .
٣. أضف إلى ذلك اتجاه بعض العناصر المغلوبة إلى إثارة فتن ومؤامرات تهدف إلى بلبلة العقائد وزلزلة الوحدة الفكرية في الصف المسلم

نماذج من المشكلات .

وقد وقع في هذه الفترة المبكرة ، خلاف في جملة من المسائل العملية الاجتهادية كان الغرض منها - كما يقول الشهرستاني : « إقامة مراسم الشرع، وإدامة مناهج الدين.»^(٨) إلا ان بعض تلك الخلافات العملية ارتفع شأنها وتعاظم خطرهما حتى صارت ذات صلة بمسائل

(٥) مفتاح السعادة ، طاش كبرى زاده ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٨ م (٢ / ٣٢)

(٦) علم الكلام ومدارسه ، د. فيصل بدير عون ، دار الثقافة ، القاهرة ، ط ٢ ، (ص ٢٨)

(٧) المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص ٤٨)

(٨) الملل والنحل (١ / ٢٠)

العقائد ، وأساسا لقيام كثير من المدارس الكلامية فيما بعد . ويمكن إجمالها في النقاط الآتية :

١. خلاف الصحابة حول مسألة الإمامة - كان أخطر خلاف حدث عقب وفاة النبي ﷺ مباشرة هو اختلافهم في حكم أمته ..؟ رجل من الانصار الذين آووا ونصروا .. أم رجل من المهاجرين الذين سبقوا إلى الإسلام وأوذوا وصبروا .. أم رجل من عترة النبي وآل بيته - عليهم السلام - .. ثم استقر الرأي على استخلاف أبي بكر ﷺ ، وبذلك سكن الخلاف ، ليعود قويا منتشعا ، ويصبح سببا لافتراق المسلمين فيما بعد .^(٩) أضف إلى ذلك خلاف الصحابة حول قتال المرتدين ومانعي الزكاة في عهد الخليفة أبي بكر ، والفتنة على عثمان ، وما سولته السبئية وغيرها من الخروج ، مما كان أساسا لما حدث في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من بعده ، من أمر الخوارج من ناحية والعثمانية من ناحية أخرى .

٢. مسألة القضاء والقدر التي أثارها معبد الجهني وتولاها من بعده غيلان الدمشقي ومسألتي (خلق القرآن) و (والصفات الخيرية) اللتين اثارهما الجعد بن درهم وتولاها من بعده الجهم بن صفوان .

٣. مسألة عصاة المؤمنين أو مرتكبي الكبائر من الذنوب ، هل هم مؤمنون ما يزالون أم كفار مخلدون في النار ؟ والتي أثارها الخوارج .

المرحلة الثانية : مرحلة التدوين وظهور المدارس الكلامية.

منذ أوائل القرن الثاني الهجري بدأت بحوث المسلمين حول العقيدة تدخل في طور جديد، فتُعقد لها حلقات مخصصة، وتنشأ فيها اتجاهات واضحة ، وتتحول إلى مدارس متكاملة ، لها أرواها المتميزة في مختلف مسائل العقيدة لا في واحدة منها فحسب ، وغالبا ما تعتنق هذه المدارس فرق أو جماعات ، فيها القادة ، وفيها الأتباع ، لا يقتصرون على وضع أصول المدرسة نظريا أو اعتناقها فكريا ، بل قد ينزعون أيضا إلى تطبيقها عمليا في جوانب حياة المجتمع المسلم الروحية والسياسية والاجتماعية والفنية ، وقد اتجهت بعض الدراسات الحديثة إلى رصد هذا الجانب العملي من نشاط المتكلمين السابقين ، أعني دراسة هذه المدارس كحركات أو تيارات فكرية وفنية وسياسية هيمنت حيناً - ولا يزال لها تأثيرها - على حياة المجتمع المسلم^(١٠) .

ولما كان أبرز ظواهر هذه المرحلة كما أسلفنا ظهور المدارس الكلامية واستقرارها ، وبلورة أصولها العقائدية وتدوينها ، فإننا سنحاول التعرف على أهم المدارس التي نمت وازدهرت في هذه الفترة الخصبة ، والتي اعتبرناها ممثلة لكل الاتجاهات في شكل ما أو منظومة معينة ؛ يتوسطها الموقف القرآني ، وهو الأصل الذي أنبثق عنه الجميع، وبه تقاس أفكارهم ، ولذا فلا يعد مدرسة خاصة أو

(٩) اصول الدين ، رشدي عليان ، (ص ٣٩)

(١٠) المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص ٦٤)

مذهبا ضمن المذاهب ، وإنما هو الأصل والمرجع كما قلنا ، وهو أيضا الوسط المتوازن الذي لا يميل ولا ينحرف ، ووضعنا على الجانب الأيمن منه خمس مدارس : هي الحشوية ، والحنابلة ، والظاهرية ، والأشاعرة والماتريدية ، وعلى الجانب الأيسر منه خمسا أخرى : المعتزلة ، الأثناعشرية ، الخوارج ، والزيدية ، والأسماعيلية ، ذلك على أساس غلبة النزوع إلى الإثبات أو التشبيه في الجانب الأيمن ، وغلبة الميل إلى التأويل والتنزيه في الجانب الأيسر من حيث الطابع العام لآراء - كل مجموعة من هذه المدارس ، وخاصة في المسائل الإلهية ، ثم على أساس النزوع إلى التمسك بالنص في الجانب الأيمن ، وزيادة الميل نحو العقل في الجانب الآخر.^(١١)

هذا - وقد راعينا أن يوضح الشكل أفقياً مدى الاقتراب والابتعاد عن الموقف القرآني الجامع لكل من العقل والنقل والإثبات والتنزيه ، وأن يوضح رأسياً بطول السهم وقصره تفاوت هذه المدارس في التزام كل من النقل والإثبات أو العقل والتنزيه ، فمثلاً الزيدية هم أقرب إلى الموقف القرآني بين المدارس الآخرة بإحكام العقل والتنزيه وأقلها إيغالاً في ذلك ، بينما يمثل الإسماعيلية أكثر المدارس التزاماً للعقل وإيغالاً للتفلسف في حقيقة أمرهم حتى ليذهبون إلى حد النفي والتعطيل وإن كان يسترون ذلك بغطاء الباطن والتأويل.^(١٢)

ومن جهة أخرى فإن أقرب الناس في رأينا للموقف القرآني من أهل الإثبات والنقل ممن يطلق عليهم أحيانا " أهل السنة والجماعة " هم الماتريدية وهم يتساوون في الأخذ بالنقل والإثبات ثم تتدرج المدارس الأخرى في ذلك حتى أبعدهم من الموقف القرآني وهم الحشوية الذين هم في الوقت نفسه أكثرهم التزاماً بالنقل والإثبات^(١٣) .

العقل	الموقف القرآني	النقل
التنزيه		الإثبات
<p>↓</p> <p>↓</p> <p>↓</p> <p>↓</p> <p>↓</p> <p>الإسماعيلية</p> <p>المعتزلة</p> <p>الأثناعشرية</p> <p>الزيدية الخوارج</p>	<p>↑</p> <p>يمثله السلف</p> <p>(أئمة آل البيت الأطهار،</p> <p>الصحابة، التابعين ، أئمة</p> <p>المذاهب الأربعة)</p>	<p>↓</p> <p>↓</p> <p>↓</p> <p>↓</p> <p>↓</p> <p>الحشوية</p> <p>الحنابلة</p> <p>الظاهرية</p> <p>الإشاعرة الماتريدية</p>

على أننا سنكتفي في فصول قادمة بذكر اهم أصول كل مدرسة كلامية بقدر ما يميزها عن غيرها

(١١) المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص ٦٥)

(١٢) المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص ٦٥-٦٦)

(١٣) المدخل إلى دراسة علم الكلام (ص ٦٦)

، مع لمحة عن تطورها ، وقد يتضمن ذلك ذكر بعض رجالها ، وأشهر مؤلفاتهم أو أقوالهم دون الدخول في التفاصيل التي لا يسمح لها المقام .
وإن كان من الضروري ذكر بعض من مثلوا هذا الموقف القرآني المتسم بالوسطية والاعتدال ، الجامع للصحة الشرعية والدقة العقلية ، فهم في نظرنا ، علماء الصحابة والتابعين وتابعيهم من القرون الثلاثة الأولى وخاصة الأئمة المجتهدون المؤسسون للمذاهب الفقهية المعروفة لدى أهل السنة ، وكذا أئمة آل البيت الأطهار ، ومن سلك نهجهم ، في قصد ، وإخلاص ، دون تفريط أو إفراط ، من طوائف المحدثين والفقهاء والمتكلمين ، وسائر العلماء في كل جيل وقبيل ، وبالله التوفيق^(١٤) .